



لم أكن أتصور أن هذه الكمّية من الإبداع والتّفاني موجودة لدى أبناء شعبنا. كنّا في السابق نراهن على مظاهره أو اثنين ولم نكن نحلم أن شعبنا قادر أن يصنع ثورة كاملة تدهش العالم بأسره من شجاعة هذا الشعب الأبي.

ولكن المقدّر لثورتنا أن تنطلق من الفن والجمال، من رسومات نقشها أطفال درعا على جدران مدارسهم. وهل أجمل من رسومات الأطفال وبراءتهم لتبدأ به ثورتك؟ وهل أسمى من باحات العلم التي دنسها البعث أن تضع هذا الفن فيه؟ أراد الأطفال أن يقطعوا بنا وأحلامنا أشواطاً طويلاً ما كنّا لنقطعها في سنوات لو بقينا على تخطيطات وتكلّمات الكبار.

أقف في كل يوم مشدوهاً أمام إبداع الشعب السوري الذي يرسم أبهى ألوان الثورة، والذي فجر طاقات ومواهب فريدة لم يكن أحد يتصور وجودها لدى شعب عانى القهر والحرمان لعقود. شعب بإبداع أفراده تجاوز نتاجه خلال الأشهر الماضية ما تنتجه كبرى الشركات والهيئات والمنظمات والدول.

الجميع يدرك أنه خلال العام الماضي قد خسر الكثير من ظنّهم أصدقاء من قبل ولكنه بالمقابل كسب أضعافهم من أصدقاء لم يعرف أسماءهم قبل ذلك، ولكنه رأى حبّهم وشغفهم بمستقبل أفضل له ولهم. الجميع يدرك أن ما مرّ كان مليئاً بالألم، ولكن في عيونهم جميعاً ترى الأمل الذي يدفعنا إلى المضي نحو الأمام.

كنّا نقرأ أن متوسط القراءة لدى الشعوب العربية هي دقائق معدودة في السنة، ولكننا أصبحنا نرى أن السوريين أصبحوا يقرؤون بالساعات عن ماضيهم وعن حاضرهم، والبعض لم يكتف بقراءة التاريخ وإنما أصبح ممن يكتبونه بدمائهم ليرسموا أجمل صورة يمكن أن ترسم لثورة.

كنت أقرأ أن حركة التاريخ إنما يصنعها آلاف الجهود الصغيرة التي لا تلقي لها بالاً، ولكن لم أكن أتصور أن ثورة يمكن أن تقوم وتبني على ملايين الجهود، وذلك دون مبالغة، وأي شخص قريب من الثورة يعرف ما أعني.

كل مشهد من مشاهد ثورتنا تجمع جهود الآلاف ليكملاه، تستيقظ حرّة في الصباح لترى على باب منزلها منشوراً ودعوة قام بتصميمها شاب متّحّر للمساعدة، أوصلها من خاطر بمستقبليه وتخفّي عن العيون فستجيب وتخرج من منزلها وتقف إلى جانب حر آخر وصلته رسالة قام بإرسالها سوريون مغتربون إلى أرقام قام آخرون بجمعها وترتيبها، فيقف هذا الحر إلى جانب الفتاة مع أحرار آخرين جمع بينهم من سهر ليلته ينسّق ويقدّر ويدرس ويستطيع ليجمع هؤلاء كي يهتفوا بحناجرهم يواجهون بصدورهم يتحدّون الظالم بعيونهم، يضحّون بأرواحهم، يحملون أعلام تعبر أنامل نسوة بحياكتهن، ولافتات تعبر أيادي الأطفال بكتابتها، وشعارات قام الشهداء بتأليفها ليزدّوّها بمكبرات تبرّع بها بعض المسنّون. يقف وراءهم شجاع يخفي ما يستطيع به نقل صوتهم، وتسجيل صورتهم ليجتاز الحاجز وينذهب وينقل ما حصل عليه إلى شخص كرس وقته وماله لإيجاد طرق آمنة لإخراج ونقل هذه المعلومات لتقوم مجموعات أخرى بنشرها ليقوم غيرهم بترجمتها لتصل إلى بقاع العالم.

وإلى جانب كل هؤلاء نجد من يعمل على جمعها وأرشفتها ليعمل عليها حقوقيون وإعلاميون وسياسيون وكتاب ليجمع كل ذلك في تقرير يقرأه رئيس دولة عظمى فيجبر أن يخرج ليدعو الطاغية للتنحي فيظن بعض الحمقى أن الثورة بدأت من هنا. هذا المشهد تكرر يوم الجمعة الماضي في أكثر من 400 نقطة لـ **ليواجـهـ الأمـنـ والـجيـشـ المـتـظـاهـرـينـ**، فيطلق جندي النار عليهم فينشق زميله الواقف بجانبه وينضم إلى صفوف من يحمي المتظاهرين الذين يلهمون إخوانهم المغتربين لينسقوا مع فدائين لمساعدة صحفيين على التسلل إلى الداخل لنقل ما يحدث آخرون يمنتجون ويخرجون الأفلام الوثائقية، وغيرهم يكتبون ويحن ويغني أغاني الثورة ليأتي من يصنع منها فيديوهات تزيد من حماسة الناس لتخرج في مظاهرات من جديد يرمون فيها منشورات تدعى من لم يشاركهم التظاهر أن يشاركهم في إضراب دعا إليه شباب يعملون على دراسته ونقل مجرياته، آخرون يحللون تداعياته، واقتصاديون يحاولون إيجاد صيغة مناسبة تساعد الناس على تحمله لإضعاف النظام حتى يخفف قبضته ليعود الأحرار من جديد للتظاهر.

هو دولاب يدور، وهي كرة ثلج تكبر في كل دورة وما زال البعض يظنون واهمين أنهم قادرون على إيقافها. صدقوني لا أبالغ عندما أقول ملايين الجهود وفي كل مشهد ترونه تذكروا دورة الحياة الكاملة له. الثورة تمضي والركب يسير فلا تفوّتوا الالتحاق بهم، فقد خطّ الكثير من أبناء البلد ما يستطيعوا أن يرووه لأنّائهم ويقدّموه أمام ضميرهم ويرضوا به ربّهم. ولكن هذه العجلة تأبى إلا أن تحوي كل مقومات الجمال، الجمال موجود في هنافات المتظاهرين، وفي نهفات التائرين، وفي ضحكات الشهداء، وفي أغاني الثورة وكتاباتها، وفي منشوراتها وفي يومياتها. كلّه مصنوع بإتقان، وكلّه مليء بالجمال الذي كدنا ننساه في إعلامنا الرسمي وفي صحفنا المملة، وفي إعلاناتنا الجافة، وفي كتابنا المكتوبة خارج نطاق الزمان، ولكن الثورة أنت لتعيد الجمال.

علمّتنا هذه الثورة أن المستحيل لا وجود له، وأن من يحلم بشيء يستطيع الوصول له، ولا أنسى مشاعرنا في شهر شباط الفائت، وكيف بدأ الإحباط واليأس يتسلل إلينا ونحن نرى الشعوب العربية انتفضت على واقعها، وبدأنا نخشى أن يفوتنا قطار الحرية حقاً.

أحرارنا عندما ذهبوا للتضامن مع شعب مصر ولبيبا أمّام سفاراتهم في دمشق كانوا يدركون أننا نحن من نحتاج هذه الوقفة وليس شعوب مصر ولبيبا، ولكنّها كانت الطريقة الوحيدة لإشعال الشرارة. يستغلون أي حدث لتجميع الناس وتآليفهم؛ فمن قصة خطف الطفل هاني، إلى قصة تقاعس الخطوط السعودية عن إجلاء الجالية في ليببيا، إلى قضية الحريرة والشرطي الذي صفع شاباً هنا. سقف الأحلام كاد أن يبدأ الناس بالكلام. لا أنسى عندما بعث لي أحد الأصدقاء المتحرّقين في شباط يسألني أن أشاركه صفة أراد تسميتها نعم لبشار القائد ولا للنظام الفاسد، علّها تكون الخطوة الأولى لتحرير الناس، خطوة على بساطتها كان من الممكن أن تؤدي بحياة صاحبها في ذلك الزمان قبل أن يزورنا الربيع. ولكنّها كانت خطوة تبعها خطوات قام بها ملايين السوريين.

إذا كنت حتى هذه اللحظة لم تخط خطوتك، ووقفت متفرجاً على هذه الثورة، ولم تزد عليها شيئاً؛ فأدعوك للتحرك، فقطف الشمار اقترب، وأجل الظالمين قد حان، ولا تقل أنك تريد المساعدة، ولكنك لا تعرف الطريق، فالشهداء قد رسموا بدمائهم شاخصات في كل مكان تدلّ على الحرية وتشير إليها، وما عليك إلا تتبعها؛ تظاهر، صور، نسق، وتق، انشر، تبرع، ترجم، صمم، سجل، أرسم، فكر، شارك، خطط، ادعم، حفّز، مثل، غني، اكتب.

جلست لأكتب عبارة عن آخر العام ولكن مرّت أيام عيني آلاف المشاهد والذكريات ولم أعرف ماذا أسجل! فوجدت نفسي أكتب عن جمال هذه الثورة، لا أعرف هل أكتب عن صديقتي التي دخلت تجرّ أختها التي كانت تبكي وراءها وتسألني أن أطلب منها ألا تذهب إلى المظاهرة خوفاً عليها، فنظرت في عيون الأولى فوجدت رغبة بالظاهر، ونظرت في عيون الثانية فوجدت رغبة أكبر بالظاهر، فلم أستطع أن أطلب منها عدم الذهاب. أم أكتب عن تلك الفتاة التي سألتها كيف توقّق بين

عملها وكل هذا الجهد الذي تقدمه للثورة؟ فأجابتنـي: أنها استقالـت من عملها منذ أشهـر وهي متفرـغة تعمل أكثر من 10 ساعات يومياً للثورة، لاكتـشف لاحقاً أن كـثيرات مـثلها. أم عن ذلك الأب الذي أشار لي أن أدخل سيارـته فـدخلتها فإذا به يـنتظر ابنـه أمام المـظاهرـة حتى إذا دـخل ابنـه بـوجهـه المـدمـى إلى السيـارة نـهرـه والـدـه أنه أسرـع بالـهـربـ، وكان عليهـ أن يـناورـ الشـبـيـحةـ ويـضـربـهمـ قبلـ أنـ يـهـربـ. أم أحـدـثـكمـ عنـ تلكـ الفتـاةـ التيـ تتـتـبعـ أخـبارـ المـظـاهـراتـ لـتـقـفـ هـنـاكـ وـتـحـاولـ إنـقـاذـ أيـ شـابـ منـ قـبـضةـ الشـبـيـحةـ بـحـجـةـ أنهـ أخـوهـاـ وـهـيـ تـعـرـفـ أنـ مـصـيرـهاـ قدـ يـكـونـ أنـ تـعـقـلـ معـهـ. أم عنـ ذلكـ الأبـ الذيـ كانـ يـطـلـبـ منـ ابنـهـ فيـ كـلـ جـمـعـةـ عدمـ الـذـهـابـ إـلـىـ المسـجـدـ الـذـيـ تـخـرـجـ مـنـهـ المـظـاهـرـةـ، وـعـنـدـمـاـ خـالـفـهـ ابنـهـ وـذـهـبـ دونـ عـلـمـهـ وـجـدـ والـدـهـ هـنـاكـ يـتـظـاهـرـ. أم عنـ تلكـ الأمـ التيـ رـأـتـ أـبـنـاءـهـاـ يـذـهـبـونـ إـلـىـ الـاعـتـقـالـ وـاحـدـاـ تـلـوـ الـآـخـرـ وـهـيـ تـقـولـ: إـنـ هـذـهـ ضـرـبـيـةـ يـجـبـ عـلـيـنـاـ جـمـيـعاـ أـنـ نـدـفـعـهـاـ. وـمـثـلـ تـلـكـ القـصـصـ مـئـاتـ عـاـيشـهـاـ كـلـ وـاحـدـ مـنـاـ وـانـطـبـعـتـ ذـكـرـيـاتـهـاـ بـمـخـيلـتـنـاـ وـسـتـبـقـيـ ماـ حـيـنـاـ، قـدـرـ لـبعـضـهـاـ أـنـ يـنـتـشـرـ بـيـنـماـ بـقـيـ الكـثـيرـ مـنـهـاـ فـيـ صـدـورـ أـصـحـابـهـاـ.

الثـورـةـ تـحـتـاجـكـ، وـهـنـاكـ آـلـافـ الـطـرـقـ الـتـيـ تـسـتـطـعـ المـشـارـكـةـ بـهـاـ...ـ فـقـطـ شـارـكـ...ـ وـتـذـكـرـ أـنـ ثـورـتـنـاـ...ـ فـائـقـةـ الجـمالـ.

المـصـدرـ: مـدـادـيـ لـبـلـادـيـ

المـصـادرـ: